

والفتوة ، وترصدوا الأقدار على أنها معادية لهم مريدة الشر دائماً بهم ، جاهدة أن تضع في سبيلهم الموائق والمراقيل ، كأن رب الأقدار مولع بالتكليل والمذاب يصبه على من يخرجهم إلى رحاب ملكوته، مغرم بفرض الأوامر والنواهي التي لا معنى لها إلا إظهار السلطان وإرهاق عبده الإنسان ! فهم لذلك حريصون على اهتبال اللذات خلصة وجهرة ، وعلى الثورة على الأوامر والنواهي تحمراً وانطلاقاً ...

وقد قر في الأذهان كذلك أن الدنيا لا احتمال لمكارهها وآلامها وتكليفاتها ، ولا طاقة للقلوب البشرية على حمل أمانيها وأعبائها ، فاجترت الأذكار معاني العجز والكسل والتسليم الدليل القاصر الذي لم يحاول شيئاً أمام ما زعموه سلطة القدر ، ورددت الأفواه ألفاظ الجزع والهلع والضعف والقنوط والهروب من مواجهة الحياة ، وجلس الرجال، نعم الرجال ! بعنصر الكفاح في الحياة مجالس الأطفال القاصرين العاجزين على التراب يكونون ويثنون ويضمرون النفيظ الأليم من الحرمان ، وينظرون إلى السماء نظر القند والتكسل حتى يوم الإقبار ...

ومن هذه الفكرة الواحدة الأساسية الأولى ولدت جميع المصائب والمكاره التي ضاقت سواد الحياة في نظر الناس وجعلتها سلسلة من الآلام ، وأخرجتها منخرج المأساة الدامية التي يدور فيها سوط القدر على ظهورهم وسيفه على رقابهم ...

\*\*\*

كانت نتاج هذا الفهم المخفي والوضع المغلوط لهذه الفكرة الأولى ، ذات أثر عميق في مجرى الحياة يتصل بالمعاند الأصلية فيها : وهي العقيدة في الحياة نفسها ، والعقيدة في واهبها ، والعقيدة في الإنسان ...

فأما العقيدة في الحياة قلما تحظى من فكر الفرد أو فكر الأمة أو فكر الإنسانية بما يجب لها من التأمل والفهم قبل البدء بالسير في طريق الحياة ... أعني عند فتح المدارك وابتداء عهد الرشد وإدراك النسب الكثيرة بين الأشياء ...

وانك إذا سألت أكثر المتعلمين - دع الجاهلين - عن مدى فهمه لحياة وإحساسه بها ، وعن الفكرة الأولى التي بنى عليها معاني نفسه ، ووجهه إلى قطبها إبرة قلبه ، وأذرك أنها هدف

## ٢ - الحياة صادقة !

### للأستاذ عبد المنعم خلاف

وراة التشاؤم - خطأ في فهم الفكرة الأساسية في الحياة - نتائج خطيرة تصل بالعائد الثلاث في الحياة وواهبها والانسان - الانسان ميث أكثر الشر - ضيوف الحياة يضطون على المضيف ! - الحياة جديرة باختيار الخروج إليها من العدم - لا خلط بين عالم الطبيعة وعالم الانسان - في عالم الكلام كثير مما لا وجود له في الطبيعة - تنقيح سجل الفضائل وسجل الرذائل - الأخلاق و خاتعات و أرضية وليست منزلة من السماء - إلى الدين يدعون التفكير في الانسان والطبيعة

قال المتنبي :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعنهم من أمره ما عنانا  
وتولوا بفصحة كلهم منه وإن سرَّ بعضهم أحياناً  
ربما تحسن الصنيع لياليه ولكن تكدر الإحسانا  
وكأننا لم يرض فينا رب رب الـ دهر حتى أعانه من أعانا  
كلا أنت الزمان قناتة ركب المرء في القناتة سنانا !  
وهكذا تاتي أكثر الناس ساخطاً على الحياة متبرماً بها ، نافقاً على القدر ، يستشعر في قلبه غيظاً دفيناً قد يكبته الإيمان حيناً وقد يبعثه الجحود أحياناً ، فيثور حتى يسخط على اليد التي أخرجته إلى الحياة ووضعت في قلبه شعلتها ... وقد قر في الصدور أن الحياة محنة وعناء أكثر مما هي فرصة للذات واهتبال الخيرات واكتساب المعارف وخروج من دائرة الجحود والموت والدم إلى نطاق الإحساس والانفعال والنمو والمرقة . وقد ترجم الأدب القديم والأدب الحديث عن تلك الآراء للتشائمة السوداء ترجمة ملأت كثيراً من الصحف ، وتوارثها انخلف عن السلف وزاد كل عصر في مجموعها ، حتى صارت نظريات مسلمة رضية أكثر الناس وتدارسوها فيما بينهم وعلموها ناشئهم قبل أن يختبر هؤلاء الناشئون وجوه الحياة بأنفسهم ونجاوبهم ، فلوت مناظيرهم بالألوان القاتعة ، واستقبلوا الحياة بوجوه طابسة ، حتى في أدوار الشباب اللامهي القوي المتضخ الصليح الخليلين بحب الكفاح وطلب المجد عن طريق القوة

والاجتهاد في التحري عن قوانين الطبيعة التي وجدنا أنفسنا في نطاقها وإسارها ، والتلصص للغايات التي يصح أن تكون أهدافاً لإيجادنا في الحياة

وما أريد أن أستند في تركيز هذه الفكرة إلى دين متوارث أو إلى رأي مأثور ، وإنما الاستناد إلى الواقع المحسوس والمنطق الوضئ الذي في الطبيعة .

ولو سألت الإنسانية نفسها : من أدخلني إلى رحاب الحياة وجعلني أحرص عليها مع أنني لم أدخلها باختيارى؟ والتمت ما يوحيه الجواب على هذا السؤال إذا ثبت إيمان كل فرد من قلبه هو قبل أن يقرأ كتاب دين أو يرث عقيدة أمه وأبيه

لأن سر الحياة العميق الملتبب التي يسكن أجسامنا يحملنا على المحافظة عليه دافع مبهم مجهول محجب ! مهما تقينا في سبيل الاحتفاظ به من آلام وعناء ... ولم يفر من حمله إلا الأقلون من المنتحرين ؛ وهم من القلة بحيث لا يعتد بهم

هذا الدافع العجيب هو صوت خفي بعيد عن غير « المؤمنين » وواضح قريب عند المؤمنين . وما يعنيننا البحث عن الصوت الواضح عند هؤلاء ؛ وإنما يعنيننا البحث عن ذلك الخفي البعيد عند أولئك ...

ونسألهم : لماذا لا يفرون من الحياة ويتخرون ما داموا بها غير مؤمنين ؟

لساذا يستمرون في الصراخ والمويل والإرزاء على الحياة والأقدار العمياء أو البصرة ، واليد القادرة أو الصدفة الخاطئة . ويصدعون أسماع الناس بالأنين والتشاؤم مع أن الأولى بهم أن يرحبوا أنفسهم من عناء الأحوال والأعمال والأقوال فيرجعوا إلى عالم الجود والموت كما تمنى قائلهم :

ما أطيب العيش لو أن الفتى حَجَرَ تذبذب الحوادث عنه وهو ملوم  
ونسألهم لماذا يقعد بهم الجبن عن مفارقة الحياة ثم تنهب الشجاعة إلى السباب والسخط على من أدخلهم إليها ؟!

أدب الضيوف ؟!  
إن للحياة نبأ عظيماً يدركه الفكر القدر تلك الأعمال العظيمة التي يدور بها دولاب الفلك في هول واتساع وقوة ورهبة و « إن في السماء خبيراً » كلمة جاهلية العصر ؛ ولكنها لباب العلم في كل زمان

الإنسانية جميعها وجدت أكثرهم يتلجلج ولا يكاد يبين ؛ لأنه دخل الحياة في ذهول الطفولة ، ثم دج إليها في عبث الشباب ، ثم أخذته غمرة مشاغل الجماعة في عهد الكهولة ، ثم هدمته عقابيل المرض والانحلال في عهد الشيخوخة ، وإذا هو بعد ذلك مدرج في الأكفان ، ملقى إلى ظلمات القبور .

هو في مراحل عمره مشغول بكل شيء إلا ما يجب أن يشغل به أولاً ...

ولكن قد يصحح أهدم من ذهول الطفولة أو من عبث الشباب صحوة المحبوم المأذى ، فترة قصيرة يرى فيها وجه الحياة ، ثم تعاوده أخذته الهمة فينتكس ...

وقد يدرك أهدم وجه الحياة وهو في مشاغل الكهولة ، ولكن يعز عليه أن يفارق طريق الجماعة ويتدى بناء حياته على ما أدرك فيمضى في طريق القافلة التائهة ...

وقد يصحح أهدم الصحوة الدائمة وهو في انحلال الشيخوخة فيموزه ويؤوده أن يجاهد في سبيل إقحام الناس وإقناعهم بما أدرك فيمضى منفيظاً محسوراً يردد :

أواه لو عرف الشباب ب ، وآم لو قدر المشيب !

ما استقامت قناة رأيتي إلا بعد أن عوج الزمان فتاتي  
فلامر إذا من ترقب عهد اليقظة وتفتح المدارك عند الطفولة والشباب ، لإدخال الفكرة الصحيحة عن الحياة ، وغايتها إلى أذهانهم .

\*\*\*

والفكرة الصحيحة - في رأيتي - عن الحياة هي فكرة التفاؤل الرحب والتأويل الواسع لا عسى أن يكون في الحياة الطبيعية من آلام ، وفهم الحياة على أنها فرصة للفرجة والاطلاع على أسرارها ، وأنها سفر في مجاهل الكون . ولا يد للسفر من بعض المشقة ... ولكنها ليست مشقة النزاع والخلاف بين الراكب المسافر ، فإن ذلك جنابة الراكب وليست جنابة الطريق ...

ومن الهين على العقل أن يهدأ ويستريح لهذه الفكرة متى أدرك أن دخولنا إلى الحياة لم يكن باختيارنا ، وأن إنشاء الكون وتهيئة الأرض وإعدادها للسكنى بالحرارة والماء والضوء والغذاء والهواء والإنبات والإنسال ليس لنا أيضاً رأيتي فيه أو اختيار ، فلانمر لنا إذا من الخضوع والتسليم والاضطخ مع مجبة الحياة ،

حتى يدب إليه المرض وآلامه ويتسرب منه لقرته  
وهو يجنى على جنسه بالشره والطمع فيما ليس له ، وبالتوزيع  
الظالم للثروة ، وباغتصاب حقوق الضعفاء والعجزة الذين  
لا يستطيعون حيلة ، وبحب الغلبة والتسلط وإهدار الدماء  
 وإهلاك الحرث والتسل في سبيل ذلك ، وتلويث الثرىة  
بالأمراض الخبيثة ، وبالتزاع والخلاف لمجرد الحسد والحقد  
ومطاعة الترائث الدنيا التي يجب أن يجد من شرها ما دام قد  
ارتضى حياة المدنية والجماعة التعاونية التفاوتة في الكفايات  
وإذا نحن تأملنا عالم الشر والألم وجدنا أكثر من تسمه وتسمين  
في السائة منه ناشئاً من جنایات الإنسان ، والباقي مرده إلى  
الأسباب الطبيعية

وسدق قول القرآن : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت  
أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا »  
وسدقت الخنساء :

إن الجديدين في طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسدان الناس  
فليس من الإنصاف إذأ في الحكم على الحياة أن نخلط بين  
الأسباب الصناعية والأسباب الطبيعية للألام فندخل جنایات  
الإنسان في نطاق الطبيعة ، ونجعل فسادها سبباً في إرسال خواطر  
الشؤم والسخط على الحياة وواهبها ، وإتاما الإنصاف أن نعد إلى  
النفس البشرية فنجعلها في انسجام وتوافق مع قوانين الطبيعة  
فلا نضيف للطبيعة شراً ليس فيها ...

ونحن قد حملنا الأقدار العليا أكثر مما نتحمل ، فنسبنا إليها  
ما تقترفه نحن من جرائم ، وزعمنا أنها راضية عن حياة الاجتماع  
الحالية ، ووقفنا منها موقف اللامعنين . ولو فهمنا الأقدار  
التي استأرت بها اليد العليا والأقدار التي خولت الإنسان  
التصرف فيها ، وفهمنا القدرة العجيبة التي للفكر البشري  
والجهد البشري على تغيير الأوضاع في الأرض ، وتأملنا تغير  
الإنسان وثبات الطبيعة في دوراتها الأبدية الكبرى ، وطواعية  
كل شيء للإنسان بسلطان العلم والتنظيم ، وأخذنا عقائدنا  
في الحياة وفي النفس مما تسمح الطبيعة لنا بالتصرف فيه ، وأدركنا  
الخطوات السريعة التي خطاها الإنسان في سبيل الانطلاق  
والسيطرة والتحرر من القيود والقدرة على طرح كثير من القيود

وما يعنى شخصيتي المحدودة ، ما دمت قد حظيت برؤية  
هذه الدار الهائلة ذات الأعاجيب اللانهائية .

وما تضيرني حوصلتي الضيقة المظلمة الفقيرة ما دمت قد رأيت  
رحاب الفضاء ومصادر النور وخزائن الغنى والثراء التي ما لها من نفاذ  
لقد تمتعت على الأقل بأحلام الفاقدين وإنما لمتاع أى متاع !  
وتطلعت إلى عالم الانطلاق وأنا في القيود ... وأدركت الباقي  
المخالد حين أدركت الغافى البائد ...

وإنها لعان جديرة أن يخرج إليها الإنسان باختياره من  
سكون العدم وجوده ، ويقتنيها ببعض الآلام والمكاره ، ويصطبر  
على الحياة من أجلها حتى توفى إلى غايتها ، ويتألم دائماً في حب  
من أخرجه إليها ...

\*\*\*

ولكن أفي الحق أن طبيعة الحياة تحمل هذا الجانب البالغ  
من المكاره التي يزعمها الناس ويتوارثون الحديث عنها ويفيضون  
فيه شعراً ونثراً وحكماً ووصايا وأمثالاً ؟ أم أن تلك المبالغة من  
جناية الإنسان الظلوم الجهول على الحياة وعلى نفسه وعلى واهب  
الحياة وإبرى النفس ؟

أم أنها من جناية « تجارة الكلام ! » وخدم الذين يرسلون  
زخرف القول غروراً لا يباليون ما فيه من الصدق أو الكذب  
ما داموا قد عبروا فيه عن حالة خاصة من مكارهم وسوداويتهم ،  
وما داموا قد أرضوا غرامهم الغنى بحسن الصياغة والإعتراب في المعاني  
والإتيان بغير المألوف وإرسال الخيال في أودية الأوهام والضلال ؟  
أما اعتقادي فهو أن الآلام الأصلية في طبيعة الحياة قليلة  
جداً لا تتعبى ما يتصل بالكوارث الطبيعية والأمراض .  
وإن كانت الكوارث الطبيعية والأمراض قد ثقلت على الإنسان  
قديمًا فهو الآن مستطيع دفاعها والتحصن منها وتقليل آثارها  
إلى حد كبير ، فلا داعي لاجترار أقوال للتشاعنين القدماء .

وقلنا تصيب الأم كارثة طبيعية الآن . ولن يبلغ مجموع  
الكوارث الطبيعية عشر مئتين ما كسبت أيدي الناس وما بني به  
بعضهم على بعض

فأكثرية آلام الإنسان ناشئة من جنایاته هو على نفسه  
وعلى جنسه ، فهو يجنى على نفسه بالإفراط في اللذات والشهوات  
حتى يهدم جسمه ، وبالتفريط في وقايتها من أسباب الأمراض

والتطبيع والمرونة تحت تأثير الأفكار ، والأفكار أمهات الأعمال وضلال أكثر النفوس ناشئ من أنها لم توضع في المواضع التي تسلط عليها فيها عوامل الطبيعة المباشرة ليكون عقلها صورة من التجارب التي فيها ، بل وضعت تحت تأثير تلك الأقوال المخلوطة عن الحياة والتقدير والمجزر الإنساني والأحلام الكواذب فهي تنظر للحياة بما في نفوسها من آثار ذلك وتحكم عليها به ولو ذهبت أقصى الضلالات المسطورة في الكتب والموروث في العقول سواء في الفضائل أم في الرذائل ، إننا لأخرجت عدداً من الفضائل ووضعت في الرذائل وعكس ذلك

وكم أود لو ظفرنا باستخلاص الأخلاق الإنسانية الثابتة من الطبيعة وحدها حتى نضع من ذلك قانون الأخلاق للجميع ! وإن الأخلاق تفاعلات بين النفس والطبيعة وبين النفوس والنفوس ، وليست منزلة من السماء ، وإنما التي ينزل من السماء هو الإرشاد إليها حين يضل الإنسان طريقها .

\*\*\*

إن العلم الطبيعي هو أعظم أبواب الحياة في دعوة الناس إلى اللقاء والسير في طريق التعارف والتكافل . والشقاء الحالي الذي تصلى الإنسانية نيرانه ناشئ من أنها لم تستجب لدعوة العلم والخضوع لما يوحى من وحدة المصلحة والمنفعة والطريق ...

وفي اليوم الذي تتسع فيه أخلاق الفرد لبني أمته وأخلاق الأم بعضها لبعض ، ويؤمنون بضرورة ضبط النفوس وتوزيع الموارد الاقتصادية - وهي كثيرة كافية في الطبيعة - توزيعاً عادلاً ، والتعاون على مكافحة الشر والألم : الشر الذي مبسه النضبية والأناية الفردية والقومية ، والألم الذي مبسه أذى الطبيعة وآفاتنا ؛ فلا شك يسمدون في جنة موقوتة يجدونها في الأرض قبل الجنة الموعودة في السماء !

قد يبدو هذا الكلام لكثير من الذين لا يدمنون التفكير في الطبيعة والنفس والقضايا العليا للوجود ، المغمورين بالتنازعات والشهوات ، غير المعنيين بالسؤال عن وضع الإنسان في الحياة ، انشاضمين لسلطان الأناية الفردية والقومية ، الجاهلين خطوات سير الإنسان منذ وجوده ساذجاً إلى صيرورته عالمكاً مقدماً ، الذين لا يسألون عن ماضي الإنسانية ولا يتسألون عن مستقبلها ، وإنما يدخلون الحياة ويخرجون منها كأنهم أوراق أشجار تجف

على مرافق الطبيعة لتسخيرها ، إذا لكان لنا من ذلك كله رأى جديد في أنفسنا وفي الحياة وفي سلطانتنا عليها ، ولحلنا ذلك على تلس النقص والفساد في نفوسنا لإيكاله وإصلاحه لا في الطبيعة البريئة من كثير مما تشبه إليها .

ولكننا مع الأسف الشديد لا نزال نأخذ عقائدنا في الحياة وفي الإنسان من منطق المعجزة الأولين الذين كانت الأرض مغلقة الأبواب في وجوههم ، وكانت الحياة جديدة عليهم ، وكانوا وسط ألتازها ومشقاتها كأطفال في صحراء ، وكانت أكثر علومهم نظرية تجريدية تتخيل ، وتقرض قليلاً ما تجرب وتعمل ، وكانت آراؤهم مبنية على ما يأخذونه من الأقوال المأثورة التي هي خراطير ابتدائية لنفهم الحياة ، وكانت الأرض نفسها مبهمة بجهولة ليسهم ، والأهوية والأموات والنباتات والأمراض والنجوم ومواقع البلاد وأجناس العباد والبهائم والحويان بجهولة العناصر والناشي ...

أما الآن فالناس جميعاً يقرءون أو يقرأ ناشتهم المثقفة على الأقل كتاباً واحداً هو الطبيعة ذات العلوم « الموضوعية » التي لا تتبدل بتبدل الأمكنة والأزمنة والأجناس

فجدير بهم أن يأخذوا عقائد جديدة من الحياة الجديدة . ولا شك أنها ستكون واحدة لو حدة المصدر الذي يأخذونها منه ؛ ثم يردوا بعد ذلك للعقائد المسطورة في الصحف الموروثية ، فما وجدوا فيه مصداقاً لما أخذوه من الطبيعة أبقوه ، وما وجدوا فيه خلافاً عليها طرحوه وراءهم ظهرها ، وحاذروا أن يلتفتوا الناشئين فيزيفوا عقائدهم .

\*\*\*

أجل ، في عالم الكلام المسجل كثير من القضايا التي لا وجود لها في الطبيعة . وكل ما في الطبيعة حق يجب الاعتراف به حتى الشر ! فهو مخلوق بالحق والخير : يمنحه ويشير إليه ولو علم التكلمون ووارثو الكلام أنهم كثيراً ما يقولون ما ليس له وجود ، وأنهم يخفون عوامل من الأفكار والآراء لا يمكن الحياة فيها ، وأن الأحلام والأمان الكواذب وضباب الأفكار كثيراً ما تسبق إلى ألسنتهم وأقلامهم ، إننا لحرصوا غاية الحرص - إن كانوا أمتاء على الحياة - على أن يكون كلامهم وفهم مرآة للحق الذي في الطبيعة وحده !

إن الطبيعة ثابتة كما نعلم ، ولكن النفس فيها طبيعة التغير